جبرا... صورة من قريب

أ.د. عبد الواحد لؤلؤة– كمبرج

لقد كُتب الكثير عن جبرا إبراهيم جبرا، الأديب الكبير، الناقد، الفنان، الروائي، الأستاذ الجامعي، المشجّع للفنانين من رسّامين ونحّاتين وشعراء وكتّاب من كلّ نوع. وأحسب أنّ ثمة الكثير ممّا لم يُكتب بعد عن رسول ثقافة طبع النصف الثاني من القرن العشرين في ثقافة بغداد والعراق عموما. ولم يقتصر تأثيره في العراق وحسب، بل امتدّ إلى أقطار عربية أخرى، بفعل ما نشر من أعماله الأدبية والفنّية خارج العراق، إلى جانب محاضرات وندوات أدبية وثقافية شتّى، حضرها أو ساهم فيها في عددٍ من الأقطار العربية، كان آخرها متوقَّعا في تونس في صيف 1995، لكنّ الأجل كان الأسبق في 1994/12/12.

لكنّني هنا أتحدّث عن علاقة شخصية قريبة، ابتدأت تلمذةً وتطوّرت صداقةً، شملت خمسة عقود من اللقاءات والمراسلات والأحاديث على الهاتف، قبل شيوع الكمبيوتر، كان آخرُها آخرَ رسالة كتبها على الإطلاق، بعث بها إليّ من بغداد وأنا في عمّان، وصلتني يوم 1994/12/9، وأجبتُه على الفور، لكن القدر كان أسرع من البريد، الذي أوصل رسالتي بعد يومين من رحيل العزيز.

في خريف 1948 جاءنا إلى بغداد، بجهدٍ مباشرٍ من المرحوم الدكتور عبد العزيز الدوري، المؤرِّخ العراقيّ المعروف، والمؤسّس الحقيقيّ لجامعة بغداد: مقدسيّ تلحميّ في أواخر عشريناته، يحمل على كاهله صليبَ فلسطين. كنّا في أول الشباب، نتغنّى بفلسطين والعروبة، وبعضنا يحمل على ظهره آثارَ ضربات خيزرانات الشرطة أثناء مساهماته في المظاهرات التي عمّت العراق ضدّ قرار تقسيم فلسطين ومؤامرات الحكومات العميلة. جاءنا هذا الرجل يبشِّر بثقافة أدبيّة فنيّة اكتسبها في جامعة كمبرج البريطانية، متوّجةً بالماجستير. تعيّن في قسم اللغات الأوربيّة يوم كنتُ في سنتي الأولى. وكان القسم منطقة نفوذ المسرَّحين من الجيش البريطانيّ بعد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

الحرب العالميّة الثانية، وجميعهم خرّيجو جامعات بريطانية، ويشهد الله أنهم كانوا مدرّسين ممتازين. لكن رئيس القسم، الطيّار العملاق، لم يسمح لهذا العربيّ أن يدرّسنا الأدبَ الإنكليزيّ، بل سمح بتدريس الترجمة، لا بأس، لأنّ دروس الترجمة كانت في الواقع دروسا في الثقافة الأدبية. وسرعان ما تقاطر طلبة الأقسام الأخرى في الكلية، وبخاصة أولئك الشعراء والفنّانون الذين كانت تزهو بهم "دار المعلمين العالية"، التي أنبتت حركة الشعر الحديث في العربية. امتدّ نشاط "أستاذنا الجديد" كما كنّا نسميه، إلى محاضرات الساعة العاشرة كلّ خميس، حيث خصّص لها عميد الدار، المرحوم الدكتور عبد الحميد كاظم، وقتا لمحاضرات ثقافية عامة، يحضرها طلبة الأقسام العلمية قبل غيرهم. هنا كان جبرا يحاضر عن "الرومانسيّة"، عن فنون الرسم والنّحت، عن أسماء فنّانين وشعراء أوربيين لم نسمع بهم من قبل. وبعد المحاضرة كنتُ وآخرون، أسرع للحديث مع "أستاذنا الجديد" نطلب مزيدا من التوضيح، وأسماء مراجع للاستزادة فيما حدّثنا عنه. لم نكن نشعر برهبةٍ عند الاقتراب من هذا الرجل والحديث معه، كما كان حالنا عند الاقتراب من أساتذتنا الإنكليز. وكنتُ أتحيّن الفرصة للاقتراب منه والحديث معه، لكن غيري كانوا أسعد حظاً، أدباء وفنانون، أكبر مني سنّا، يجتمعون مع هذا الأديب الكبير في "مقهى البرازيلية" في شارع الرشيد، حيث سعر فنجان القهوة خمسون فلسا، بدل عشرة فلوس في المقاهي الأخرى، ولكن أحاديث الرجل وتعليقاته كانت تصل إلينا لاحقاً، أو أتجرأ أنا وأسأل عمّا دار بينه وبين بلند الحيدري وغيره من الشعراء مثل: بدر الشاكر السيّاب، أو ذلك القادم من ظلال نخيل بعقوبة، حسين مردان، الذي نصّب نفسه "بودلير العراق".

وبعد تخرّجي في الكلية عام 1952 علمنا أنّ جبرا حصل على منحة دراسيّة إلى جامعة هارفرد الأمريكية، حيث أفاد من البروفسور"آي. أي. ريتشاردز" وهو مثله من أهل كمبرج، اجتذبته هارفرد من حيث كان أستاذا في كمبرج، وهو صاحب "النقد الجديد" في عالم الأدب. ولما حصلتُ أنا على بعثة إلى جامعة هارفرد للدراسات العليا، كان لا بدّ من أن أزور أستاذي العائد من هارفرد، فزوّدني بتوصيةٍ إلى البروفسور "ريتشاردز" الذي غدا المشرف على

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

دراستي هناك. واستمرّ تواصلي مع جبرا بالرسائل، حتى عودتي إلى بغداد، حيث صارت اللقاءات أكثر وأشدّ قربا وأكثر غنى.

ولدى عودة جبرا إلى بغداد، تلقّفته "شركة نفط العراق" ليؤسِّس لها جانبا ثقافيا ومجلّة، تُعنى بالميول الثقافية لدى منتسبي الشركة. لكنّ أستاذنا لم ينس طلبتَه من أصحاب المواهب، ولا رهطه من الأدباء والفنانين، فراح ينشر لهم ما يبدعون من شعر ورسم ونحت، ويكاد لا يخلو عددٌ من "العاملون في النفط" من صورة لفنّان عراقيّ تزيّن غلاف المجلة، إلى جانب قصائد ومقالات ثقافية أو دراسات فنيّة لأسماء ظهرت أول مرة في تلك المجلة. وكنت أنا شخصيا أسأله عن أولئك الفنّانين والشعراء، فيسرّني ما يشرح لي عنهم وعن توقعّاته لمستقبلهم الفنيّ والأدبيّ.

من المعروف عن الجنس البشري أنّ النابهين لا يعوزهم "حاسد وعذول". لكن جبرا هو الاستثناء. طوال صحبتي لأستاذنا لم أسمع بمن عاداه أو أساء إليه. فهو يترفّع عن الصغائر والشتائم التي تشكّل مظهرا في سلوك الكثيرين تلك الأيام، وكأنها لم تنته إلى اليوم، حكماً على ما نراه في صحفنا المعاصرة في هذا القرن الحادي والعشرين. فإذا جاءه من يسأله نصيحة أو رأياً تجده هاشّا باشّاً وهو يجيب سائله، "كأنّك تعطيه الذي أنت سائله" على رأي زهير بن أبي سلمى في وصف كريم. إذا تصادف أنْ كنتُ في زيارته وفاجأنا زائرٌ يحمل هديّة، يستقبله جبرا بكثير من الترحاب ويتناول منه الهدية بسيلٍ من عبارات الشكر، حتى قبل أن يفتح الهدية ثم يبدأ في فتحها مستمرّا بعبارات الشكر والإعجاب بذوق حامل تلك الهدية. هذه ملاحظة لفتت انتباهي إلى تصرّف كثير من "الآخرين" الذين إذا حملت إليهم هدية بمناسبة ولادة طفل لهم، أو بمناسبة خطبة ابنة لهم، وضعوا الهديّة جانبا مع عبارة شكرٍ مبتَسرة، وتذهب عنهم وأنت لا تدري إذا كانوا قد فتحوا الهديّة بعد مغادرتك، أو إذا كانت أعجبتهم، حتى عندما يلتقون بك بعد مدّة.

أذكر أنّني يوم كنت أستاذاً بجامعة الكويت، جاءني أحد طلبتي ممن يتعاون أحيانا مع الصحف المحلية، وقال لي إنّه ذاهب إلى بغداد في العطلة القادمة، ويريدني أن أزوّده بتوصيةٍ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

لمقابلة جبرا، وإجراء مقابلة معه لمجلة كويتية، قلت: والثمن أن تحمل لأستاذنا علبة سيكار، لأنه يدخّن السيكار أحيانا، وافق الشاب، فذهبت إلى محلٍّ لديه أفضل أنواع التبوغ والسيكار، وساعدني رجل أوربيّ جاء ليشتري السيكار من ذلك المحل، فاخترت ثلاث علب من أفضل الأنواع وأغلاها، وحملها تلميذي النجيب إلى أستاذنا ببغداد. فلما التقينا ببغداد بعد ذلك، سألت أستاذنا، بشيء من الوجل، إنْ كان أعجبه اختياري، فأمطرني بعبارات الثناء والإعجاب بذوقي- وأنا لا أعرف شيئا عن السيكار، وكان من جملة ما قاله جملةٌ بقيت تتردّد في ذهني: اختيارك لم يبق مجالا للإطراء، لأنك اخترتَ أفضل الأنواع مما لم أسمع به أو سبق أن رأيته من قبل.

والتواضع عند جبرا صفة دون تكلّف، كنّا نخرج في الأماسي نتجول في شارع 14 رمضان، نشتري حاجاتنا من الخضار والفواكه. أدهشني أنه خبيرٌ باختيار الطماطم والبصل من النظر قبل اللمس، فاختيار البرتقال غير مستغرب من فلسطيني، ولكن اختيار الكوسا والباذنجان مسألة دون إدراكي المطبخي. يمرّ بعضُ الناس ويقول أحدهم بصوت مسموع: هذا الأستاذ جبرا، فيلتفت أستاذنا إليه ويتبادل حديث مودّة وتحيّات. وبعد أن ينصرف، أسأله: من هذا؟ فيقول: لا أدري، ولكنّه إنسان يبدو عليه الطيب، وقف للتحيّة فلماذا لا أبادله المودّة بمثلها؟ كان المارة يعجبون بهذا الأديب الكبير الذي يشتري حاجاته بنفسه، ويسير على الأرض، مثل الآخرين، ويحمل أكياس الخضار والفواكه إلى سيارته أو سيارتي. لقد تولّد عند كثير من الناس شعورٌ أنّ الأديب الكبير أو الشاعر يكون اتصاله بآلهة الأولمب مباشرة، وهو لا يشارك بني البشر سلوكهم وهمومهم. ولكنني أعرف أنّه يحبّ أن "يغلي ركوة القهوة" بنفسه وحسب ذوقه. وهو كذلك خبيرٌ بعمل "مخللات الخيار" ويفضلها على الجاهز في الأسواق. وقد تعلّمت ذلك منه أنا، ولا أزال أحضّر القهوة لنفسي وللضيوف الذين كانوا يعجبون بها، إلا نازك الملائكة التي كانت تضيف ملعقتيْن من السكر على فنجان سكر وسط! لكنّني أقلعت عن المخللات.

ومن أمثلة تواضعه أنّه يصغي باهتمامٍ إلى رأي الآخرين في ما يكتب ويترجم، ويحترم رأي الآخرين، وقد يغيّر من مخطوطة قبل أن يرسلها إلى المطبعة. مرة طلبت منه مجلة "الأوبزرفاتور"

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

الفرنسيّة أن يكتب مقالا حدّدت موضوعه وعدد كلماته. فإذا به يفاجئني بعرض المقال عليّ "لأعطيه رأيي" أنا تلميذه الذي بقي يتعلّم منه طوال السنين. أمتعني المقال جدا، الذي حافظ على عدد الكلمات المطلوبة، وهي مسألة تحترمها الصحافة في البلاد الأخرى. فرأيتُ أن أتخابث وأعطيه رأيي في المقال: فاخرْ...بهذه اللغة الإنكليزية الطليّة، سأنتظر صدوره باللغة الفرنسيّة لأرى هل أنّ ترجمته تضاهي الأصل، ويعجب به القارئ الفرنسيّ!

في عام 1988 منحته بغداد جائزة الآداب في القصة والرواية. كنّا لجنة يترأسها المرحوم الدكتور "سهيل إدريس"، وكنت أنا منسّق جائزة الشعر التي كانت من نصيب عبد الرزاق عبد الواحد، كان التنافس على الجائزة شديدا، وكنّا نخشى أنْ تؤثر في عملية التحكيم عوامل غير منتظرة. فاقترح الدكتور سهيل أنْ نعلن النتائج مساء الغد. ولكن في صبيحة الغد فاجأتنا صحيفة مصرية بعنوان كبير: "بات في حكم المؤكد فوز د.ي.إ بجائزة بغداد في القصة والرواية" فسرَتْ نظرات الاستغراب بيننا، لأن النتائج لم تكن قد أعلنت حتى ذلك الصباح. وفي المساء أعلنت النتائج، وكانت جائزة القصة مناصفةً بين جبرا ود.ي.إ. فلما سمع الأخير استشاط غضباً، و"طيّرَ" برقيّةً إلى رئيس البلاد قائلاً: "أنا مش نص بني آدم تعطوني نص جائزة"، فحمل وزير الثقافة تلك البرقية إلى رئيس البلاد الذي "ضحك حتى بدت نواجذه" وتحركت في أعطافه أريحيّة هارون الرشيد، فقال: "بَخٍ بَخٍ، أعطوا كلَّ واحدٍ منهما جائزة كاملة...اثنينهم يستاهلون." ولما علم جبرا بأمر البرقية قبل أن يعلم الرئيس، قال: أعطوا د.ي.إ. الجائزة كاملة فهو يستحقها! لكنّنا فرحنا بجائزة جبرا.

كان "شارع الأميرات" آخر ما كتب جبرا،كما يذكر على ص 253، من أنّ أحاديثه عن "سنة العجائب" 1951 قد انتهت بتاريخ 1994/02/27، وفي المقدمة بتاريخ 1994/03/18، يلمّح عن رغبته في الكتابة عن أربعين سنة أخرى "يذكرها الكثيرون اليوم ببغداد وكأنها في تطلّعاتها الإبداعيّة وزخمها الاجتماعيّ، عصر ذهبيّ يحاولون تلمّس سحره قبل أن يتلاشى، وهو يتماثل في الذهن كحقبة من أغنى حقب المجتمع العربيّ المعاصر.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

هذا ما كنّا نحسّ به فعلا، حتى جاء جراد السياسة والحزبية في أواخر القرن الماضي، فأفسد كلّ ما زرعه المجتمع العراقيّ منذ عشرينات القرن، في التعليم والثقافة والبناء والفنون؛ والحديث مؤلم يطول. و"سنة العجائب هي سنة 1666 في قصيدة "جون درايدن" (1631-1700) يوم نشب الطاعون في أحد أحياء لندن الفقيرة، فأهلك الكثير من البشر، وسرعان ما شبّ حريق هائل في المنطقة نفسها، وكأنّه جاء لتطهير آثار الطاعون، لكن الحرائق في عام 1951، وما بعدها من "سنة العجائب" عند جبرا هي سنة حرائق ثقافيّة، كان هو أوّل موقديها. لم نسمع بعبارة "الشعر الحرّ" قبل أنْ يقدّمه جبرا لنا في ما كتب من شعر حرّ بالمعنى الدقيق. صحيح أنّ نازك الملائكة وصفت شعر التفعيلة الذي كتبته في قصيدتها "الكوليرا"، وما تلاها بصفة الشعر الحرّ، ولكن المناقشات كانت في أوّلها عام 1949، وكان أوّل الرافضين والد نازك نفسه "صادق الملائكة" الذي كان من الجيل التراثيّ الذي لا يؤمن إلا بالأوزان الخليلية ونظام الشطر والعجز، ومثله كانت زوجته، أم نازك، تقرض الشعر التراثيّ، وكان العصر الشعريّ في العراق هو عصر الزهاوي والرصافي. لكن جبرا الذي جاءنا عام 1948 ودرّسنا الترجمة في قسم اللغات الأجنبيّة، كان أول من ثقّفنا بالآداب الأجنبية الحديثة، خلال تدريباته لنا في ترجمة النصوص من الإنكليزيّة إلى العربية وبالعكس.

كان يرى ضرورة الشرح والتفسير قبل البدء بالترجمة. وكان أول من عرّج على الشعر الحرّ في ترجمة أمثلة منه. قرأ لنا مرّة "قصيدة حرّة" من تأليفه بعد أن قدّم أمثلةً إنكليزية وأمريكية. كنّا مأخوذين بالصور الجميلة في غرابتها وهو يقرأ قصيدته، فلمّا وصل إلى "والشبابيك تبكي بمآقٍ من حديد" لم أستطع أن أكتم صيحتي: "هذا جميل، ولكن أين الوزن والقافية؟" وتبع ذلك بشروح وأمثلة عديدة من الشعر الحرّ.فلما جاءت تفسيرات نازك وقعنا في حيرة: أيّ الاثنيْن شعرٌ حرّ. بعد ذلك بفترة نشر جبرا مقالا ضمّنه أحد كتبه النقديّة لاحقا بعنوان "الشعر الحرّ والنقد الخاطئ" يفسّر فيه خطأ ما ذهبت إليه نازك. وبناءً على ما تعلّمته من أستاذنا الجديد، بقيت أنا شخصيّا أعود إلى الموضوع في مناسبات عديدة. ففي عام 1968 قدّمت محاضرة في الموسم الثقافي يوم كنت أستاذا بجامعة الكويت بعنوان "قضية الشعر الحرّ في العربية" أثارت كثيراً من الجدل. وفي عام 2008 ألقيتُ محاضرةً في الموسم الثقافيّ لجامعة الإمارات العربية

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

المتحدة بعنوان "الشعر الحرّ والخطأ المستمر" أبيّن فيها إلى أيّ مدى ابتعدت نازك ومن تبعها عن المفهوم الدقيق للشعر الحر. وكانت المناقشات اللاحقة: كيف استمر هذا الخطأ!

كلّ هذه الأنشطة بسبب ما تعلّمنا من "أستاذنا الجديد" نقاش مع الأمثلة للإقناع. ولكن الحكمة المعطوبة بقيت سائدة: خطأ شائع خير من صحيح مهجور!

إلى جانب إنعاش الشعر، كان جبرا الرّسام يحمل لوحات رسمها على شرائح من خشب الزيتون الفلسطينيّ، لم يعترض عليها موظف الجمارك عند دخوله الحدود العراقية في خريف 1948. فكان أول أنشطة جبرا في "سنة العجائب" أنْ أسّس مع جواد سليم، النحات الرائع "جماعة بغداد للفن الحديث" في 1951/04/21. وانضمّ إلى الجامعة رسّامون ونحّاتون، لم نكن قد سمعنا بأغلبهم حتى تأسّست تلك الجماعة. وراح جبرا يغذي تلك الجمعية بمحاضرات تثقيفيّة كنت أنا وزملائي في "العالية" أول من أفاد منها. وجبرا هو الذي أسّس "المرسم" في دار المعلمين العالية في أول وصوله. وبعد ذلك أسّس مرسما آخر في كلية الآداب بعد إنشائها عام 1949-1950.

في "شارع الأميرات" وهي آخر ما كتب جبرا، نقرأ "سيرة ذاتيّة" تختلف عن المألوف في السير الذاتية. هذا كتابٌ أشبه بالرواية المشحونة بالشعر، لكنّها تروي أحداثا عامة وتذكر عددا كبيرا من الشخصيات "الواقعية" ممّا يلغي الحاجة، إلى ذلك التصريح المألوف في الروايات الذي يدّعي عدم وجود علاقة بين الأسماء المذكورة والواقع. في الفصل الثالث بعنوان "سيدة البحيرات" وصفٌ لامرأةٍ عجيبةٍ برزت للكاتب من "لا مكان" أثناء تجواله في منطقة البحيرات في إنكلترا، تلك المنطقة الأثيرة عند شعراء الرومانسية الإنكليز، وتحمل الأوصاف شحنات شعريّة تذكّرنا بالشاعر الرومانسيّ "كيتس" بشكل خاص. وبهذا المعنى تشكّل "شارع الأميرات" تثقيفا بالشعر في سياق سيرة ذاتيّة. يجسّد الكتاب زيارة جبرا الفعلية لباريس في صيف 1951، وبخاصة تردّده "الإدماني" على متحف اللوفر، حيث يتواصل روحيّا مع الفنّانين المعروضة لوحاتهم في اللوفر، ويرسّخ معلوماته عمّا قرأ عن كبار الرسّامين والنحّاتين

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

العالميين، "لا ليشتري بضع بطاقات بريديّة من معرض المتحف" يرسلها إلى الأصدقاء ليقول لهم: ها أنا في باريس."

وثمّة جانب تثقيفيّ آخر في هذه السيرة الذاتيّة، وهو الحديث عن رحلة جبرا إلى بريطانيا عشيّة الحرب العالميّة الثانية، مع ذلك الفيزيائيّ الفذّ، حلمي سمارة. بدأت رحلة طلب العلم ولو في "التيمز" في أجواء حرب لم يكن في مقدور أحد تصوّر نتائجها. كان السفر من القدس إلى ميناء حيفا بواسطة "الحنتور" يسحبه حصانان مسكينان. ومن حيفا إلى الإسكندرية بالباخرة، والإسكندرية هي كلّ مصر التي رآها طالب العلم، فكان الحديث المشوّق عن قناة السويس، وتاريخها وافتتاحها باحتفاليّة أوبرا "عايدة" كما كان منتظرا، والاستعاضة عنها بأوبرا "ريغوليتّو" وحكاية حفر القناة بالسخرة، وتفصيلات تثقيفيّة أخرى، تجعل من حديث تلك السفرة موضوعا لفلم سينمائيّ.

ومن المعروف لدى الباحثين في الفنّ الروائيّ القول إنّ الرواية الأولى للكاتب يغلب أن تكون سيرة ذاتيّة، وهذا يصدق على "صراخ في ليل طويل" أول رواية كتبها جبرا بالإنكليزية في القدس، ثمّ عرّبها أثناء إقامته الدراسيّة في جامعة هارفرد، 1952-1954. كانت هذه الرواية الأولى ذاتيّة بأحداثها وشخصياتها مع قليل من الخيال. لذا يمكن القول أيضا إنها رواية واقعية، مثل روايته الثانية بالإنكليزية (1960) "صيّادون في شارع ضيّق" التي ظهرت ترجمتها إلى العربيّة بقلم تلميذه الآخر الدكتور محمد عصفور (1974). كنت أقضي فصلا دراسيّا في جامعة أكسفورد في صيف 1961، حين أخبرني أستاذي بالرسائل، بصدور "صيّادون" عن دار نشرٍ كبرى (هاينمان) فسارعت لاقتناء نسختي وقرأتها بمتعة شديدة، وحاضرتُ عنها في مناسباتٍ شتّى، لأنّ محيط الرواية يبدو أمامي مثل شريط سينمائي. وفي فترة انتظار لامتحانات الدكتوراه في الأدب الإنكليزي، لم أجد خيرا من كتابة دراسة بالعربيّة عن "صيّادون" فأرسلتها فورا إلى مجلة "الأديب" البيروتيّة التي نشرتها في عدد نيسان 1962، وأحسب أنّ تلك أوّل دراسة كتبت عن الرواية بالعربية.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

تتصّف "صيّادون" بواقعيّة صور الحياة في شارع الرشيد وبغداد عموما، لذا يمكن عدّها بين الروايات الواقعيّة في صيغة سيرة ذاتية، مثل "شارع الأميرات" التي تمتلئ بأسماء شخصيّات من رجال ونساء وأماكن أعرفها كما يعرفها كثيرون ممّن عاش في بغداد الخمسينات، وعايشوا الظروف والأحداث العامة، وفي آخر الكتاب مسرد من ستّ صفحات بأسماء وردت في "شارع الأميرات" ذلك الشارع الطويل في المنصور، بمحاذاة ميدان سباق الخيل: أسماء شعراء ورسّامين وفنّانين من كلّ نوع، وسياسيّين وأساتذة جامعات... بأسمائهم الحقيقيّة. كلّ هذا يجعل هذه الرواية –السيرة الذاتية– واقعية تكاد تنطق وتلمس. ومن ذلك ذكر قصة حب حقيقيّة مفاجئة في باريس صيف 1951، مع سيّدة جاءت من لامكان مثل "سيدة البحيرات" وتعلّقت بالكاتب الذي سرعان ما أدرك أنّها لا تناسبه، لكنّه يذكر الحادثة بالتفصيل، مما يضفي مسحة واقعية على السيرة –الرواية. وفي الأحاديث عن عشق النساء، نجد عشقا أشدّ وأقوى في عشق الثقافة، تسلّل من أحاديثه في "البئر الأولى" وفي أيّامه في الكليّة العربيّة، ثمّ في جامعة "إكستر" وفي "ستراتفورد–أون–إيفن" مولد شكسبير يتجلى عشق الأدب والمسرح في فترة الزيارة المحدودة. وقد سرى هذا العشق إليّ، أنا تلميذه، إذ حرصتُ على حضور جميع ما قدّم "مسرح شكسبير الملكيّ" في صيف 1961. وسبق لي حضور سبع مسرحيات في "الكوميدي فرانسيز" في أربعة أيام باريسيّة تيسّرت لي في صيف 1957، وكنتُ أشتري أرخص البطاقات التي يتحمّلها جيبُ طالب بعثة عائد إلى الوطن. كانت تلك البطاقات الرخيصة تأخذني إلى أعلى المقاعد، "قريبا من الآلهة" كما يقول الفرنسيون.

وعشق جبرا للثقافة والكتب لا يخلو من ذكر حوادث طريفة، من ذلك أنّه شحن أمتعته من كمبرج يوم عودته إلى الوطن، فوصلت الحقائب فارغةً من الألبسة ولكن الكتب وصلت جميعا باستثناء كتاب واحد من أعمال "رابليه" ما زال يعجب جبرا من سبب اختفاء ذلك الكتاب دون غيره. ربما كان غلاف الكتاب يحمل صورة فتاة جميلة، فأحبّ رجل الجمارك أن "يستعيره" كما يستعير طلبة أكسفورد دراجات زملائهم ولا يعيدونها. يا ترى هل "استعار" رجال الجمارك ملابس هذا الطالب العائد من الدراسة إلى وطنه استعارة بلا عودة؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

تمتدّ أحداث "شارع الأميرات" من قدوم جبرا إلى بغداد في خريف 1948، وسرعة انغماسه في حياتها الثقافية المتوثّبة. يذكر عددا من الشخصيّات الأجنبيّة بأسمائهم ومواقعهم من حياة بلدٍ خرج لتوّه من تشتّت سنوات الحرب العالميّة الثانية. من هؤلاء "دنيس جونسن ديفز" من أصدقاء جبرا القدامى في كمبرج. كان هذا البريطانيّ تلميذ البروفسور "آربري" مترجم المعلقات "مذهولا بالجوّ الثقافيّ في بغداد الخمسينات وحديث الكثيرين عن الوجوديّة والسرياليّة" .كان أشدّ المتحدثين حماسة الشاعر الفذّ "بلند الحيدري" الذي لم يتجاوز مرحلة الدراسة المتوسّطة، و"حسين مردان" عامل البناء القادم من بعقوبة لكي ينهل من الثقافة الأوروبيّة الحديثة ولكي تقوي مركزه "بودلير العراق". هذه عيّنة بسيطة من حماسة الناس للثقافة في عراق الخمسينات، نستعيد ذكراها بنوع من الحنين المرضيّ. ومن المتحمّسين للثقافة على نطاقٍ أوسع شاعر الحداثة العراقيّ الأول، بدر شاكر السيّاب، الذي كان المريد الدائم لأستاذنا جبرا. كان يجتمع به في أيّ مكان يتاح له، يسأل ويستفسر ويطلب شروحا لقصائد ومسرحيّات إنكليزيّة. وأنا أعرف أنه استعار مجموعة أشعار "إيدث سيتويل" ولم يرجع الكتاب إلى صاحبه أبدا! وأستغرب أن "شارع الأميرات" لم يتحدّث كثيرا عن توجيه جبرا لمسيرة بدر الثقافيّة، ربما كان ذلك من باب كرم التواضع. وأنا أعرف أيضا أنّ جبرا كان ينظّم رعاية طبيّة لبدر تحت إشراف ذلك الطبيب الفلسطينيّ النبيل، الفنّان الأديب الدكتور علي كمال. فلمّا زاد المرض على بدر، توسّط له جبرا ببعثة دراسية إلى جامعة "دَرَم" لكنّه لم يكن مرتاحا في تلك المدينة الكئيبة، فكتب عنها: "دَرَم..بنفسي ممّا عراني بَرَم"، وعاد في أواخر 1963 ولم يجد العلاج المطلوب، حتى أخذوه إلى الكويت حيث قضى عليه المرض في المستشفى يوم 1964/12/24.

وفي مجال الترجمة من الإنكليزيّة إلى العربيّة كان جبرا سبّاقاً لا يُشقّ له غبار، في العراق، وفي بقيّة البلاد العربية، في أغلب الظن. فمنذ وصوله إلى بغداد في خريف 1948 حتى أخريات أيّامه، نشر ما يزيد عن ثلاثين كتابا ترجمها عن الإنكليزيّة في شتّى فنون الأدب والنقد والمسرح. من أبرز تلك الأعمال ترجمة سبع مسرحيات من شكسبير أولها "هاملت" التي صدرت في بيروت 1959 (مجلة شعر) وتكرّرت طبعاتها دون استئذان المترجم، وهو أمرٌ لا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

يمكن أن يحصل خارج البلاد العربية! حتى إنّ تلفزيون بلد عربيّ شقيق استعمل ترجمة "هاملت" هذه في طبعها شروحا تحت مشاهد فلم روسيّ عن "هاملت" من دون استئذان المترجم طبعا، ولا حتى التفكير بدفع الاستحقاقات في مثل هذه الأحوال. وبعد "هاملت" تواصلت ترجمة المسرحيّات الشكسبيريّة، في طبعات بيروت والقاهرة والكويت وبغداد. وقد ظهرت أربع من تلك المسرحيات في مجلد واحد بعنوان "المآسي الكبرى" عن المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت، وبطبعة ثانية عام 2000. وهذه المآسي الكبرى هي: هاملت، عطيل، لير، ماكبث. ثم أعقبتها ترجمة مسرحيات: كوريولانس، العاصفة، الليلة الثانية عشرة، وذلك في سلسلة "مسرحيات عالميّة" عن وزارة الإعلام بالكويت. إلى جانب ترجمات شكسبير والكتب النقديّة النادرة، كان للأطفال نصيب من ترجمات جبرا، ربما إكراما لحفيدته "ديمه" رفيقة تسياره في شارع الأميرات في العصاري، من هذه كتابان: "حكايات من لافونتين" و"الأمير السعيد وحكايات أخرى" من "أوسكار وايلد".

لما بدأ جبرا يدرّسنا الترجمة في قسم اللغات الأوربيّة، بدار المعلمين العالية ببغداد، بدءاً من وصوله في خريف 1948، كما سبق القول، كان يرى "تدريس" الترجمة مسألة "تدريب" وليس عرض نظريات في "كيف تترجم"، والواقع أنّنا لم نسمع يومها بشيء يدعى "نظريّة الترجمة"، كنّا نعلم، كما يعلم الجميع أنّ أساطين الترجمة في العصر العباسيّ وفي "دار الحكمة" ببغداد، من أمثال حنين بن إسحاق، وقسطا بن لوقا البعلبكيّ وغيرهما لم يكن لديهم "نظريّة" في الترجمة. ولا كان ابن المقفع لديه شيء من ذلك. كان الجميع لديهم محبّة لنقل النصوص من لغاتها الأجنبية إلى العربية، وأحيانا من لغة وسيطة، كما نقل ابن المقفع حكايات الهند عن ترجمة فارسية، وكما نقل تراجمة المأمون كتب الإغريق يقرأها لهم رجال الدين النساطرة وأهل الكنائس المشرقيّة الذين يعرفون الإغريقيّة، لكن النقلة كانوا حاذقين باللغة العربيّة، مما جعل ترجماتهم مقبولةً للقارئ العربيّ.

لذا كان جبرا يستعيض عن "تدريس" الترجمة بكلمة "التدريب" على "الترجمة" بإشراف مدرّس أو خبير أو ممارس للترجمة، فليس هناك "نظرية" في تعلّم السباحة أو سياقة السيارة مثلا. بل

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

إنّ "السبّاح" يأخذك إلى النهر أو البحر ويقوم بحركاتٍ بالأذرع والأرجل ويريد منك أن تقلّد ما يفعل. وبمتابعة "التدريب" تحت إشراف "السبّاح"، أو المدرّب يتقن المرء السباحة، وقد يغدو "مدرّباً لغيره. وينطبق القول نفسه على تعلّم سياقة السيارة. يخطئ المتعلّم في أول أمره ووظيفة المدرّب تصحيح أخطائه، حتى يستطيع القيام بعمل دون مساعدة.

قد يبدو هذا الكلام منطقيا أو بدهيّا، لكنّه من المنطق والبداهة ما يجعله قابلا للتجاوز أو النسيان. لكنّ أسلوب جبرا في "التدريب" على الترجمة يبدأ بقراءة النص، أو يطلب من طالب أن يقرأ، ويتبعه في القراءة طالب ثان، والأستاذ يوقف القراءة ليشرح معنى كلمة قد لا نعرفها، أو يفسّر إشارة ثقافية قد لا نعرفها، وفي أثناء ذلك يكون قد تمّ "استغوار" النص، وهذه الكلمة من اختيار جبرا، على صيغة "استفعل" التي تفيد "الوجود" و"الطلب" كما يقول النحاة "استكبر" وجد الشيء كبيرا. لذا يكون "الاستغوار" طلب الوصول إلى الغور، أي إلى عمق المعنى في الكلمة أو المصطلح. وبعد هذه القراءة الأولى والاستغوار، يبدأ الأستاذ مناقشة النص معنا ويفسّر ما غمض علينا من إشارات أو إحالات، ثم يطلب إلينا أن نشتغل على ترجمة النص بعد حصة الدرس، لنعود في الحصة القادمة ويقرأ كلّ منّا ترجمته ليناقشها مع الطلبة الآخرين أو مع الأستاذ. وفي آناء ذلك يصوغ الأستاذ نصا مترجما قائما على المناقشات، نسجّله "صيغة معتمدة" ونضعه في دفاترنا مقابل النص الذي أنتجه كلّ واحد منّا.

بهذا المعنى كان "التدريب" على الترجمة عمليّة تثقيفيّة يقوم بها جبرا لمصلحة شباب جامعيّين سوف يظهر من بينهم الشاعر والقاص والرسّام...والمترجم.

وهذه العمليّة التثقيفية كانت تقوم على الحثّ على مراجعة النصوص الأدبيّة الفذّة، من معلقات و"نهج البلاغة" وأعمال كبار الأدباء في العربيّة، لكي "نشحذ" قدراتنا اللغويّة في العربيّة، مع الرجوع الدائم إلى المعاجم العربية للتأكّد من معنى كلمة أو اشتقاق. أما في النصوص الإنكليزية فكانت العودة إلى القاموس ضرورةً لا تحتمل النقاش، فكم من كلمة أو مصطلح يعتقد الواحد منّا أنه يعرف معناه أو مغزاه، لكن العودة إلى القواميس للتأكد قد تبيّن أنّ ثقتنا بذاكرتنا أو معرفتنا السابقة تتطلّب إعادة نظر، أو تصحيحا أحياناً.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878

وعملية التثقيف في التدريب على الترجمة عند جبرا تشجّع على الرجوع إلى القرآن الكريم دائما لصقل إدراكنا اللغويّ في ملاحظة أساليب البلاغة العربية، وفي نصوص الأدب الإنكليزي كان التثقيف تشجيعا على الرجوع إلى "الكتاب المقدس" لأن كثيرا من الإشارات والإحالات تقتضي فهمها بالرجوع إلى نصوص العهد القديم، والعهد الجديد معا من الكتاب المقدس. ومن دون ذلك يصعب فهم واستيعاب شعر "ملتن" مثلا وبخاصة "الفردوس المفقود" و"الفردوس المستعاد" مثلا.

أراني في هذه الصفحات قد ذكرت غير قليل من الأمور التي سبق لي الكتابة عنها وعن أستاذي وصديق العمر، ولا أحسب أني كنت قادرا على غير ذلك. وقد أختم حديثي بذكر حادثة طريفة تسبّب لي فيها أستاذي عن غير قصد، فمن باب التشجيع أعطاني مرّة مقالا مترجما عن الألمانية بقلم "شوبنهاور" وطلب منّي ترجمته تمريناً إضافيا، فلما أنجزت ذلك وعرضته على أستاذي أعجبته الترجمة، وكان بعنوان "النساء"، يحمل فيه الفيلسوف الألمانيّ حملةً شعواء على النساء، فلمّا نشر المقال في صحيفة يوميّة من مدينتنا المحافظة، الموصل، جاءتني رسائل هجوم لاذعة، حاسبين الهجوم على النساء من كلامي أنا، غير منتبهين أنّه ترجمة، نشرت إحداهنّ، بتوقيع م.س المدرِّسة بثانوية البنات، تقول لي: مَن أنت حتى تهاجم النّساء؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/878